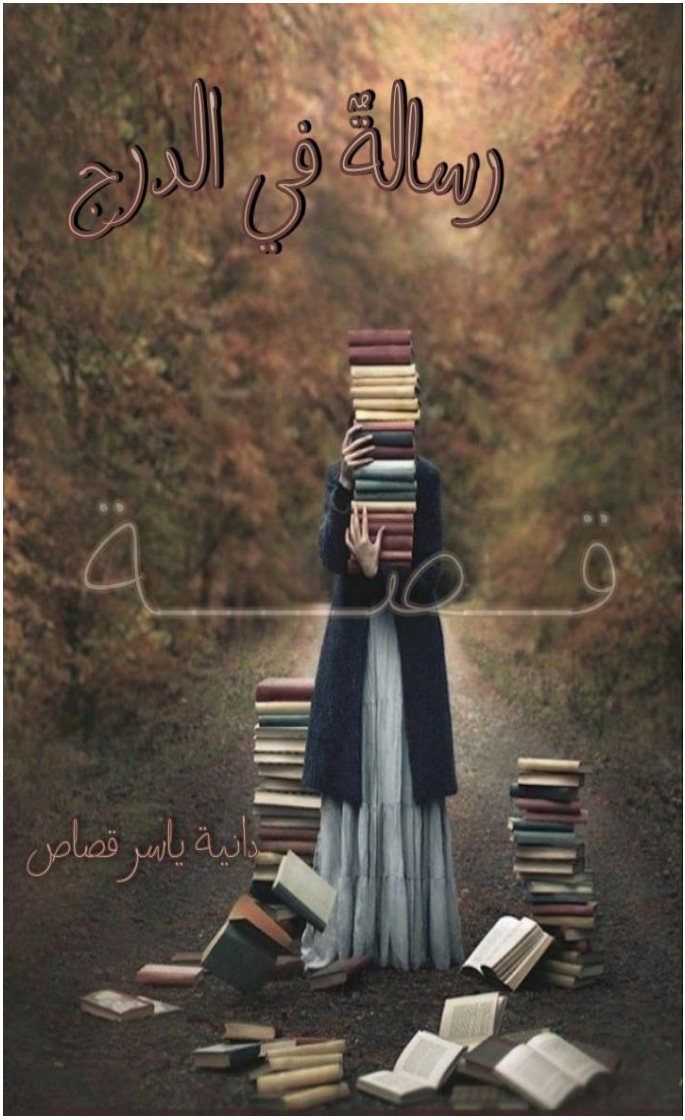
رسالةٌ في الدرج
قصة
دانية ياسر قصاص

الرسائل التي أكتبها ولا تصل إليك؛
تنمو في قلبي نكيبة طفلٍ لم تحمل الريح طائرته الورقية.

_لقائلها.

1/أكتوبر
إلى: جواد صادق
العنوان: قرية السنونو

مساء الخير.

كيف حالك جواد؟
طالت مدة هجري، فهل الخير عندك بدوني أم أنك تفتقد كلينا؟ لا عليك أعرفك تتجاهل أسئلة كهذه، أتتخيل أن العطلة شغلتني عنك؟ كلا، أنا حين أقرر الانشغال انشغل بأي شيء، وإن لم أجد شيئًا، انهمك بمراقبة الوقت وهو يفوت فقط، وحين أقرر أن أبقى أفديك بكل أعمالي وأشغالي، وأنهك نفسي بينكما معًا.
حسنًا، سأتوقف عن كوني نكدية، تعال أحدثك عمَّ قررت فعله بهذه العطلة، أنت تعلم الحرب استهلكت كل ما لديّ من طاقة، كل ما معي من مشاعر، ولذلك قررت أن أقطع علاقتي بالأشياء التي أحبها بشدة وهي بطريقة ما تؤذيني لأن لا شيء قادرٌ على إيذائنا سوى الأشياء التي نُحب!
أتعلم هذا اليوم الثالث تقريبًا بلا قهوة، قررت أنني سأتركها بعد عامٍ من الإدمان، وهكذا كل الأشياء يا عزيزي، مهما أحببناها، وتعلقنا بوجودها سيأتي اليوم الذي نبتعد فيه عنها سواء خيارًا أو اضطرارًا، كل الأشياء فانية وزائلة، لا ينبغي أن نتعلق إلا بالله، لنعمل لذلك اليوم سنلاقيه فيه، وما دونه لا يأتي التعلق فيه إلا بالألم، أتعلم لستُ من أولئك الذين يفضلون شيئًا إيجابيًا صغيرًا مؤقتًا، أنا لا أعرف عيش اللحظة الحالية كما يقولون، أمتلك عقلًا يفكر بالنهايات قبل أن يجرب البداية، وربما هذا ما يجعلني أتردد كثيرًا، وأفوّتَ الكثير من

الفرص الغير المضمونة بنظري، لا يناسبني إلا ما هو ثابت، واضح، ومستقر -إن لم نقل دائم- ربما لأن مشاعري هشة، وعطائي ينبع من قلبي تمامًا، ولا أستطيع الاعتياد سريعًا على التغييرات، فأفضل الابتعاد دائمًا عن أكثر الأشياء.
الكلام هنا لا ينطبق على القهوة تمامًا وأحسبك تدرك ما أرمي إليه، ولكنها باتت تؤلم رأسي عند التأخر عنها، أو الخروج دون شربها، وربما لأن ذوقي فيها صعبٌ جدًا وليست أية قهوة تروقني، ولأنني لا أحب أن يتحكم في مزاجي ويومي شيء إلا أنا، قررت ذلك، الوقت غير مناسب لهذا الحديث لكنني أشعر برغبة بالثرثرة، جواد أنا أخشى المستقبل، وربما أخشى الحب، لأنه يجعل كل تأثراتك النفسية بيد شخص آخر، وأنا أمتلك فوبيا من الثقة بالآخرين أو الاعتماد عليهم، وكذلك عندي فوبيا من الفقد، أشعر بأن قلبي لا يحتمل تلك الأشياء، وربما أنا أفضل شعوري بالقوة دائمًا ولا أحب الضعف أمام أحد، والحب يتطلب ذلك، فهو فوق مقدرتي وطاقتي ولذلك أخشاه، الشخص الانطوائي يبدو قاسيًا ولا مباليًا لأن علاقته بكل الأشياء سطحية وبعيدة، لكنه في الحقيقة يفضل ذلك لأن مشاعره قوية اتجاه الأشياء، فهو يخشى عليها وربما هو بالحقيقة يخشى منها!
أتعلم هذه ليست رسالة وإنما ورقة اعترافات كثيرة أخشى إرسالها لك، فلا أدري هل سأرسلها أم سأرميها في سلة المهملات نهاية الأمر؟!
لا أدري أي قرار سينتصر أخيرًا، وداعًا الآن!.

_أيلول.

****

5/ أكتوبر
إلى جواد صادق.
العنوان: قرية السنونو

سلامٌ لطيفٌ كبوح حروفي عليك، سلامٌ محملٌ بالشوق إليك.
كيف أنتَ؟
أتذكر بأنك لم ترد على رسالتي السابقة أستاذ جواد؟ لا بأس لن أعاتبك، أريدك أن تعلم أنني كنت بحالة سيئة جدًا، أعتذر لما بدر مني حينها، لم أكن أقصد التخلي عنك، لكن لا أستطيع تمالك حالاتي المزاجية المزخمة بالشعور، لا استطيع سوى أن انقاد معها وأكتبها حتى أتجاوزها، أنا الآن بحالٍ أفضل الحمد لله، تعال لأخبرك بشيء غريب، ألم أقل لك سابقًا أنني قررت ترك القهوة؟ عدت إليها بعد هجر أسبوع فقط، لم أقوَ على أكثر من ذلك، أدركتُ أنني أحبها فعلًا، وما نحبه بالفعل لا نستطيع التخلي عنه مهما حاولنا يا جواد، لا البعد ينفع، ولا البديل ينفع، ولا الإدارة تنفع، حاولت ردم الفراغ الذي تركه غيابها بأشياء أخرى، لكنها لم تجدِ نفعًا ولم أعد أطيق البعد وغلبني الشوق إليها ولرائحتها الساحرة، الدروس لا تكتمل بدونها، ولا الكتابة، ولا حتى قراءة الكتب، للقهوة جوها الخاص الممتع اللذيذ الذي لا يعوضه أي شيء، صحيح أن وجودها متعب أحيانًا ولكن فقدانها كذلك، ولا بأس بالتعب إن كان في سبيل شيء نحبه، بالمناسبة يا جواد إن رصيد الحُبَّ الذي بداخلك اتجاه الأشياء هو الذي يعطيك القوة لتحمل المصاعب التي ستواجهك لأجلها، فالحب الحقيقي هو أن تتقبل ما تحب بكل إيجابياته وسلبياته وإلا فإن حبك له ناقص!.

أتعلم مالذي تعلمته خلال هذه الأيام؟
تعلمت أن الحياة لا تتوقف عند أحزاننا ولا عند أفراحنا، لذلك علينا نحن أيضًا ألا نتوقف عندهما، ما كان جميلًا سنجففه كالوردة لنحتفظ به في دفتر ذاكرتنا، وما كان سيئًا سنتجاوزه بعون الله وننساه، كل شيء يمضي وكل الأشياء قابلة للتغير يومًا ما، لذلك علينا ألا نيأس أبدًا.

ختامًا، أجبني هل تعتقد بأن القهوة قد أدركت مدة محبتي لها برأيك؟

يومًا طيبًا.

_أيلول.

****

6/ أكتوبر
إلى: أيلول مطر.
العنوان: قرية السنابل

صباح الخير يا خيرَ هذا الصباح.
أتأمل اسمكِ وأنا أكتب إليكِ، أراكِ في قطرات المطر، في وجه السحاب، في بداية برودة الطقس، في نسمات الهواء، في كل ماهو لطيف وباردٌ كقلبك!

تسألين كيف أنتَ؟ أوما علمتِ بأنك أنا وبأن حالك حالي فكيف تسألين يا أنا؟

القهوة رافقتني منذ الصباح، كنا نفكر معًا فيما سنجيبك، خلاصة الكلام يا أيلول قهوتك تُحبك!

ـجواد.

****

رسالةٌ في الدرج.

أكتب الآن وأنا أعرف مصير هذه الورقة تمامًا، لأنها كصديقاتها اللواتي يقبعن في الدرج، إلى أن أجنّ يومًا ما فأحرقهن أو أمزقهن وأجعلهن يتطايرن في إحدى العواصف الشتائية، حينها ستحترق مشاعري معها أو تتمزق، لا بأس لعلي في النهاية أتحرر من قيد الشعور، ثم من يدري أنا الآن أراكما كما سابقاتها ربما في نوبة جنوني القادمة أرسلها جميعها إليك لعلك تدرك ما تفعله بي!

أفهم بإنك تحبني، واعلم بأن دقات قلبي تتراقص عند قراءة كلماتك، لكنني لا أريد تعبيرك بالحبّ فقط وهروبك من مسؤولياته يا جواد، أنت هكذا دائماً لا تراعي حساسيتي، ماذا لو سألتني مالذي كان يزعجك لذلك الحدّ؟ ماذا لو عبّرت عن انزعاجك وفقدانك لحروفي في أسبوع الجفاء ذاك؟ ماذا لو كلمتني عن تفاصيل عطلك وشاركتها معي؟
جواد نحن نعشق التفاصيل، نهتم لها ونفتّش عنها، أرجوك لا تهملها لأنها أنا! أنا كومة من التفاصيل يا جواد، أنت تعطيني جرعة حبٍّ كبيرة في بضع كلماتٍ ثم تختفي، قل لي كل فترة كلمة واحدة واصحبها بأفعالٍ دافئة ستصل إلى قلبي بشكلٍ أعمق وستدوم مدة أطول صدقني!.

أتعلم ينازعني اختيار أن أرسلها إليك ولكنني أخاف أن تبتعد، أن تتركني، أن تعاود إخباري بأنك "لا تحب النكد!"، وأنت تعلم بأن هذه الحرب سلبت مني عائلتي، وأن جدتي التي خطبتني منها هي كل من تبّقى لي يا جواد، أحب أن قلبك يشاركني كل أفراحي وأرى في عينيكِ لمعة البهجة لأجلي، ولكنني أريد أيضًا كتفًا يسندني عندما تهدُّ الأحزان تماسكي، وتسلبَ بسمتي، لا بأس المهم

الآن أن كلماتك عادت إلي، سأمسح دمعاتي الآن وأنهض لأعد القهوة واكتب لك ردًا لرسالتك!

_أيلول.

6/أكتوبر

****

8/ أكتوبر

9| رسالةٌ في الدرج/دانية قصاص💌🔖

إلى: جواد صادق
العنوان: قرية السنونو

صباحُكَ سادة ورسالتي سُكّرهُ.

ما هذه الكلمات اللطيفة التي تسلب القلب منذ الصباح؟!
لا تبخل عليّ برسائلك، ولا تختصرها، أيلول تُحبُّ الجرائد كما تعلم يا جواد.

صحيح أخبرني كيف هي عطلتك؟

بالنسبة لي فقد قرأت الكثير من الكتب، وتعلمت طهي الجبن مع جدتي هذا الأسبوع، كان الأمر ممتعًا جدًا!
وقد بدأنا بإخراج الملابس الشتوية وترتيبها، هكذا تمضي أيامي، أتعلم؟ اشتقت للدوام والتدريس ولصوت الطباشير الذي أكرهه، اشتقت لكلمة "صباح الخير" بلهجة طفولية دافئة كل صباح، حتى إني أفتقد الاستيقاظ مبكرًا تخيّل! والأهم اشتقت لرؤيتك، لكوب القهوة الذي تشتريه لي حالما تأتي، وكذلك لتأفف المدير "عادل" حينما يرانا نثرثر معًا قرب نافذة الممر الطويل، أما اشتقت مثلي؟

ألا يوجد أخبار جديدة بشأن عودة الدوام؟ سمعت بأن الأمور قد هدأت في القرى المجاورة، وحتى لو قامت فيها الحرب ألم تكن قد ابتدأت عندنا؟ ألم نأخذ نصيبنا منها وكفى؟ أم أن حصتنا هي الأكبر؟!، مللت الخوف والترقب هكذا، أود أن أعيش بسلام يا جواد كما يعيش الناس على الجانب الآخر من العالم، كما أنني أريدك أن تزورنا وهذه القوانين الصارمة تمنع السفر بين القرى، لعل

الأمور تنصلح قريبًا وهذا ما أرجوه من الله، أتعلم أتفائل كلما راقبت أوراق الخريف وهي تتساقط على الرغم من كآبة الجميع عند رؤيتها، أشعر بأن الحزن والذبول لا يدومان أبدًا، وأنها ليست نهاية الأشجار، بل هي على موعدٍ مع ربيعٍ يحيي كل ما مات فيها ويجعلها تزهر من جديد، وهذا ما يمدني بالأمل يا جواد، ربيع بلادنا حتمًا سيأتي يوماً ما!

ملحوظة: ربما تتأخر الرسالة بالوصول إليك، سمعت بأن رجال الأمن قد أخذوا العاملين بالبريد لصفوف الجيش، وسيتعيين الأكبر منهم سنًا قريبًا.

ملحوظة ثانية: لا تنسَ أنني أحبُّك.

_أيلول

****

كانت تتمشى ذهابًا وإيابًا أمام باب الدار بعد أن كنّست أوراق الخريف، وجلبت الحليب لجدتها، ليست في مزاجٍ جيدٍ لتساعد في طهي الجبن اليوم، هي قلقة على جواد، لقد مرت خمسة أيام ولم تتلقَ منه رسالةً للآن، ما خطبه يا ترى؟!

تباطأت خطواتها شعرت باليأس، "ربما لن يأتي ساعي البريد اليوم أيضًا" حدثت نفسها، تأملت دالية العنب التي تكاد تُصبح جرداء ثم نقلت بصرها للشجرة الضخمة التي على يسار الكوخ، هي الوحيدة التي تبقى صامدة ولا تتأثر تحت أي ظرف، اقتربت من باب الدار تنظر لشتلات الورد الجوري التي لا أثر لها الآن، إنها لا تزهر سوى بالشتاء، تنهدت ثم فتحت باب الدار الخشبي ودلفت للداخل، خلعت حجابها معلقة إياه على المشجب الذي في زاوية الردهة، وكفكفت أكمام فستانها البرتقالي الباهت الذي يحيط بجسدها النحيل المتوسط الطول، وجلبت ظفيرتيها الطويلتين لتنسدلا على كتيفيها للأمام، أقبلت على جدتها التي تقف في المطبخ بفستانها الزيتي المزركش بخطوط طولية وعرضية سوداء وبيضاء، شعرها قصير محنّى ليظهر بلونٍ أحمرَ قانٍ، خطَّ الزمن على وجهها وكفيها آثار عمرٍ طويل، ملؤه العطاء والكفاح، جهّزت أيلول قوالب الجبن لجدتها، وجلست على المنضدة الخشبية يمين جدتها في ذلك المطبخ الصغير، الذي يملؤه الأثاث القديم، وتغطي رفوفه ستائر صفراء قصيرة، ابتسمت أيلول ناظرة إليها بعينيها الكستنائية المكحلة مردفة:

ـجدتي، الإنسان يشبه النبات.

ـما وجه الشبه الذي أكتشفته يا بنتي؟

ـنحن نشبهه في تأثره بالمتغيرات، البعض قويٌّ وشامخ كأشجار السرو الباسقة، والبعض يتعاقب عليه الإزهار والذبول على الدوام، والبعض يزهر في مكانٍ

واحد ووقت محدد، بعضها لا يعيش بدون اهتمام، والآخر يخرج وحده في أسوء الظروف وبدون أي عناية ويكون غاية في الجمال، ألسنا كذلك يا جدتي؟ أنتِ مثلًا تشبهين شجرة السرو التي قرب دارنا.

صبّت الجدة الجبن في القوالب وغسلت يديها وهي تستمع لكلام أيلول، وحينما انتهت اقتربت منها واضعة يدها على كفي حفيدتها قائلة بحنان يطغى على صوتها:

ـصحيح ياعزيزتي، وهل تعلمين مالذي تشبهينه أنتِ؟

قالت بنبرة منكسرة منكّسة رأسها:

ـبلى، أنا أشبه الجوري يزهر بضعة أشهر ويذبل بقية العام!

ـلا، أنتِ تشبهين الياسمين، لا تذبلين بأي حالٍ يا أيلول، وتزهرين بأقل الإمكانيات التي تجدينها.

ـهكذا ترينني يا جدتي؟

ـنعم يا صغيرتي، أنت ياسمينةٌ لا تذبل، لا تنسي ذلك أبدًا اتفقنا؟

نهضت أيلول معانقةً جدتها، دافنة رأسها بحضنها الدافئ.

****

15/أكتوبر

إلى: جواد صادق.

العنوان: قرية السنونو.

رسالة جديدة.

يوم جديد.

وفنجان قهوة جديد.

وشعور قديم لا يتغير.

اشتقت إليك، كيف حالك؟ ما سرُّ اختفائك؟ أتعلم؟ أتمنى مشاركتك في الكثير من الأشياء، أحزنني اليوم موقفٌ ما قد حدثك عن موقفٍ يشبهه سابقًا، وأذكر أنني كنت منزعجة جدًا، فأضحكتني حينها بشدة، تمنيت أن أحدثك عنه ثانية!

هل أخبرك سرًا؟

الثرثرة معك تريحني وإن كان الموضوع سخيفًا، وكأن كلامك قادرٌ على سحب الطاقة السلبية وإبعادها، اشتقت لصوتك ولحروفك ياجواد.

للحديث بقية انشغلت الآن، جدتي تحتاجني.

ملحوظة:

كلّ من أحبهم مرضى هذه الأيام بسبب تغيّر الجو، اختفاؤك يقلقني ويشتعل قلبي خوفًا عليك، اهتم بنفسك جيدًا على الأقل لأجلي أنا!

ممن تحبك: أيلول

****

كانت تحتسي قهوتها قرب نافذة غرفتها، سارحة تراقب الأمطار الغزيرة، تتطاير الستارة الزرقاء مع نسمات الهواء الباردة وكذلك خصلات شعرها السوداء، ارتعشت فمسحت وجنتاها بكفها، وأعادت خصلاتها وراء أذنها، وارتشفت من قهوتها، من يراها يظنها تتأمل مشهدًا ما بشغف، لكنها ساهمة تناظر الأشياء لكنها لا تراها، هي غارقة في عالمٍ آخر تمامًا، أفاقت من شرودها على صوت جرس ساعي البريد، خفق قلبها بتسارع، وارتفعت وجنتاها راسمة ابتسامة واسعة مضيئة، أسرعت بوضع الشال فوق فستانها الأسود الواسع، ونزلت الدرجات لردهة المعيشة دون أن تشعر بهن، حتى وصلت للباب مع صوت الطرقة الأولى، فتحت مستبشرة، وتلقت المغلف شاكرة، وقعت على استلامها وأغلقت الباب، مسرعة إلى غرفتها.

قبل قليل كانت تشعر به، تشعر بأن موعد رسالته اقترب فأفاقت على صوت ساعي البريد، لطالما كان شعورها صحيحًا!، فتحت المغلف بأصابع مرتعشة أثر الحب والخوف، وبدأت القراءة:

20 /أكتوبر

إلى: أيلول مطر

العنوان: قرية السنابل.

السلامُ على القلب الذي أُحبّ، وعلى العيون التي تقرأ.

كيف حالكِ يا غيمتي؟

إنها تُمطر بشدة، أشعر أن الكتابة لكِ لا تأتي سوى مع الأمطار، كلاهما يجلبان الخير: المطر والكتابة.

أنا بخير الحمد لله، أعتذر عن تأخري الطويل، كنتُ مسافرًا للمدينة لأرى كيف تجري الأمور هناك، وكذلك لشراء الحاجيات لأهل القرية، ولحسن الحظ كان السفر بأمر من الأمن، تم استدعائي للتأكد من بعض أوراقي فستغلت الأمر لصالحي، تأكد رجال الأمن من أوراقي وتم سؤالي عن أحوال القرى قربنا، ثم لم أستطع العودة حتى البارحة، لو ترين المدينة يا أيلول، المدينة متناقضة، متناقضة جدًا!

أضواءها لا تخفت، ألوانها كثيرة، ولكنها بدت في حينٍ آخر مُظلمة أكثر من اللازم وجوه أهلها واجمة، الفقر فيها مؤلمٌ أيلول، أحيانًا تنسين نفسكِ وسط الزحام وهذا شعورٌ جيد وسيئ، جيد لشعورك بالحرية والسعة، وسيئٌ لأنك لا تجدين بينهم أحد ترتمين بأحضانه وتبكي، أو أن يراك تبكين فيقف لجانبك ويؤرقه حزنك، أو أن تجدين من يعرفك فيقف معك ليثرثر لكِ وتمشيان معًا فلا تشعران بطول الطريق، الطرق في المدينة طويلة، طويلةٌ جدًا يا أيلول، وناسها كُثر، وفيها العديد العديد من الأشياء، أشياء جميلة تشعرك بالسعادة، وأشياء أخرى تذكرك بأحزانك، بالمناسبة جلبت لكِ شيئًا سيعجبك، صحيح هل علمتِ؟ بعد غد سيبدأ الدوام بإذن الله ياحلوتي، كوني جاهزة.

كُلّي شوقٌ للقياكِ.

ـجواد.

على الطرف الآخر للورقة وجدت أبياتًا شعرية:

خُذِي
ما شِئتِ من سَهَرِي
وكُوني
الليلَ والشمْعا
خُذِي
ما شِئْتِ من تَعَبِي
وكُوني
الخبزَ والنّبْعا
عسانا نلتقي بالصبح
في مُدُنٍ بلا جوعى!

_أحمد بخيت

التقطت دمعتها بطرف إصبعها، وضمت الرسالة إليها.

****

دلفت للمدرسة بوجه بشوش، وفستانٍ زيتي يعلوه معطف خفيف بلونٍ ورديٍّ فاتح وبذات اللون كان حجابها، تضم إليها كتابين بيد، وتحمل مظلتّها باليد الأخرى، ترد تحية الأطفال المتراكضين أمامها بابتسامة ونبرة ملؤها الحب والعطف، دلفت للبناء الداخلي متمهلة، تبحث بعينيها عن جواد، وجدته ما إن وجّهت نظرها لليسار حيث الممر الطويل ونافذتهما المفضلة، لكن ما سحب

الدماء من وجهها مخلفًا إياها ساحبة هو وقوفه يحتسي القهوة مع فتاة ناعمة الجسم قصيرة، شقراء الشعر، ترتدي فستانًا أرجوانيًا ضيقًا من أعلاه لأسفله، كان يتحدث إليها ثم يضحكان معًا، أثار المشهد جنونها، هي لم ترَ فتاةً كهذه من قبل، لم ترَ قط ملابس كملابسها إضافة لكونها لا تستحي أن تظهر شعرها ومعصميها! ثم إن دويَّ ضحكتها الذي يشبه صرير نافذة الزجاج حين تفتح بعد مدة الزمن فتستفز مسامعك بشدة استفز كل خلية في أيلول الرزينة الهادئة، خطت نحوهما ببطئ، وعند وصولها، ابتسم جواد الشاب الطويل القامة ذو الملابس السوداء والشعر الأشقر والعينين العسليتين، أردف قائلًا:

ـصباح الخير أيلول.

نظرت إليه باستنكار مقطبة حاجبيها، واكتفت بالصمت، أردفت كاتيا ذات الرداء الأحمر متصنعة الود:

ـحدثني جواد عنك أيلول، أنا كاتيا مدرسة لُغة عربية جديدة هنا قد نتساعد أخبرني جواد أنك تدرسين اللغة لجميع الصفوف، سأريحك الآن.

نهت جملتها بابتسامة وهي تمدُّ يدها نحو أيلول:

ـأنا لست فقط مُدرّسة، أنا خطيبته هل أخبرك؟.

لم تكن تهتم لمنطقها في الحديث حينذاك، كانت الغيرة تتآكلها من الداخل، أعادت كاتيا يدها للوراء حينما لم تصافحها أيلول، رفعت حاجبيها وأنفها للأعلى مجيبة:

ـلم يخبرني، لقد توّسط لي منذ عدة أيام حينما استدعته إدارة التربية والتعليم في المدينة للاستفسار عن معلميّ المدرسة، وعن المواد التي فيها نقصٌ في الإعطاء، وبفضله تم تعييني هنا، محظوظة به يا أيلول!

نظرت أيلول لجواد نظرة عتابٍ طويلة، وكانت تهز رأسها باستمرار بشكل لا إرادي، تجاهل نظرتها قائلاً:

ـ كنت انتظر رؤيتك لنتحدث بكل هذه الأشياء، سأجلب لكِ القهوة لتهدئي ثم نتكلم.

ـلا أريد.

اتجهت برأسها نحو كاتيا مستفسرة:

ـأنتِ من المدينة إذًا؟

ـلا، كنت صغيرة أعيش في قرية السنونو جواد يعرف والدي ثم سافرنا للمدينة، أتعلمين؟

صمتت وهي تشيح النظر عنها بتكبّر، ثم قالت:

ـسكان الريف لم ولن يتطوروا يومًا! لقد أكدتِ لي الآن ذلك.

ردت أيلول ببرود وألم:

ـصحيح، نحن قومٌ لا تموت العفة فينا ولا الحياء، وما زال الخطأ يستفز الجزء الصحيح في قلوبنا لننكره، لم نتطور بعد فنتخلى عن القيم بغية وهم التحضّر! استأذن.

ومضت مسرعة، خارجة من المكان، تبعها جواد على الفور، مناديًا باسمها مرات متكررة، استدارت إليه قائلة بنبرة جاهدت لجعلها متماسكة:

ـابتعد، دعني وشأني لا أستطيع رؤيتك.

فتوقف يحدّق فيها باستغراب لا يدري مالذي عليه فعله!

****

رسالة في الدرج.

مرّت أكثر من عشرة أيام، لم أرغب بالذهاب للدوام كل تلك الأيام، بل لم أرغب حتى بمغادرة غرفتي لولا جدتي، تماسكت في ذلك اليوم إلى أن وصلت للبيت ثم غرقت في نوبة البكاء، كنت أشعر بأن هناك أمرًا ما لتغيّر تعاملك معي، لقلة رسائلك لي، كان فكرك مشغولٌ بها وأخفيت كل ذلك عني، رضيت بإهانتها لي ولم تحرك ساكنًا، كانت عيني تتوسل إليك أن تأخذني جانبًا، أن تدافع عني، أن تكون قد عرفتها عني سابقًا، على الأقل كنت أريدك أن تغضب لرؤيتي لكما، أن تتفعل وتبرر لي، لكنك لم تفعل!

أن تزورني في المساء لتصالحني، لكنك لم تفعل!

أن ترسل أحدًا من عائلتك وسيطًا بيننا للصلح، أيضًا لم تفعل!

أن تبادر برسالة تعتذر فيها والأقسى أنك لم تفعل!

خيبتي بك الآن من النوع الممتاز، من الطراز الرفيع، لقد هنتُ عليك وهذا ما لا يمكنني تجاوزه يا جواد! كان بوسع كل القسوة التي في العالم أن تختفي، كان بوسع كل غضبي وانكساري أن يختفي، كان بوسع قلبي أن يمحنك الحب ثانيةً فقط لو أنك جعلتني أشعر أن حزني يعنيك، أن قلبي في كفة والعالم بالكفة الأخرى، فقط لو رأيتك تحاول معي أو لأجلي، لكنك بخلت عليّ حتى بالمحاولة يا جواد وهذا ما لا يُنسى!

دموعي أغرقت رسائلي وكتبي ووسادتي، وكما تتفتت الأوراق إثر ابتلالها الشديد فتت الدموع قلبي!

5/نوفمبر

****

رسالة في الدرج.

مررت اليوم على المدرسة لأقدّم استقالتي، رأيتك تقف معها في ذات المكان، نظرت للخاتم الذي يحيط بإصبعي، لقد كان يعني لي الكثير، أتساءل هل كان يعني لك شيئًا ما ولو ليومٍ واحد؟

بعد أن خرجتُ من مكتب الإدارة اقتربت نحوي، كانت عيناك تتسألان لكنك لم تعرف يومًا كيفية الكلام بطريقة مباشرة، فوقفت أمامي صامتًا، رفعت عينيّ إليك وآلمني شعورٌ في أيسر صدري، ولأنني لست شحيحة أجيب حتى نظرات العيون، أجبتُ ببرود:

_قدّمتُ استقالتي.

_لماذا؟

هل كنت تستفسر عندها أم تسخر مني لست أدري، ما الإجابة لذلك السؤال الذكي برأيك؟

_لا حاجة لي، أتى من يملء مكاني!

بمرارة أجبت، فأردفت أنت قائلًا:

_لا تبكِ أيلول.

_أبكي؟!

_أعرف بأن التدريس يعني لكِ الكثير، وأنكِ متعلقة بالأطفال هنا.

_تركت ما هو أعزّ من ذلك ولم أذرف دمعة، أأبكي الآن؟

أنت لا تعلم أن ضعفي لا يظهر سوى لمن أحب، وأنني حينما لا أبديه لك يعني أنني لم أعد أشعر بالأمان اتجاهك، أتظن بأنني سأخبرك عن دمعاتي التي تسببت لي بالمرض؟! ثم لا أفهم كيف فعلت ذلك بي وأنت تعرف حساسيتي، وهشاشة مشاعري، لا أفهم كيف لم تفكر بذلك حينما جعلتني أخسرك، وفكرت به عند خسارتي للعمل، طريقتك بالحديث آلمتني فمضيت للأمام مسرعة، ثم استدرت للوراء متذكرة شيئًا ما، وعدتُ إليك ببطئ، يستفزني تماسكك للغاية، لا علامة لأي تأثر على مُحيّاك، رجل الجليد الذي أنت عليه يثير جنوني بطريقة لا تُصدّق، تجعلني أتمزق حينما أراك! اقتربت منك، ومددت يدي إليك ثم فتحت كفي، لتلتقط خاتمك، رُسمت المفاجأة على ملامحك، قلت بنبرة ساخرة مغطسة بالمرارة:

_أنسيت أن بيننا خاتمٌ أيضًا؟

_ولكن

_انتهينا.

_ما معنى هذا؟

_أسأل معلمة اللغة العربية لعلها تشرح لك معنى الكلمة يا أستاذ جواد، وداعًا.

أمسكت معصمي حينها قائلًا:

_غيرتك دفعتك لذلك؟ ألهذه الدرجة عقلك صغير؟!

رفعت حاجبيّ باستنكار:

_بل أنت من فعلت ذلك بنفسك، وداعًا.

_مهلًا..

أنا عاتبتك ألف مرة بدون نتيجة، فبدأت معاتبة الأوراق دون إرسالها لك عندما أيقنت أن لا فائدة منها، أنت لم تفهمني، كنتَ تُحب حبي لك، لكنك لم تحبني يومًا!

لطالما تخليت عن الأشياء التي أحبّها وتؤذيني وعددت ذلك انتصار، ولطالما كان خلف ذلك الانتصار الكثير والكثير من الانكسار!

_أيلول

12/نوفمبر.

قناة التلغرام الخاصة بالكتابة:

قطوفها دانية:

https://t.me/daniaqasaas

دمتم بحبّ.💌🔖